❊ ❊ ❊

٢- بابُ التوبةِ

قَالَ العلماءُ: التَّوْبَةُ وَاجبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْب، فإنْ كَانتِ المَعْصِيَةُ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ الله تَعَالَىٰ لَا تَتعلَّقُ بحقِّ آدَمِيٍّ، فَلَهَا ثَلاثَةُ شُرُوط:

أحدها: أنْ يُقلِعَ عَنِ المَعصِيَةِ.

والثاني: أَنْ يَنْدَمَ عَلَىٰ فِعْلِهَا.

والثالث: أنْ يَعْزِمَ ألا يعُودَ إِلَيْهَا أَبَدًا. فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ.

وإنْ كَانَتِ المَعْصِيةُ تتعَلقُ بآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أَرْبَعَةٌ: هذِهِ الثَّلاثَةُ، وأنْ يَبْرَأ مِنْ حَقِّ صَاحِبِها، فَإِنْ كَانَتْ مالًا أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْه، وإنْ كَانَت حَدَّ قَذْفٍ ونَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وإنْ كَانْت غِيبَةً استَحَلَّهُ مِنْهَا. ويجِبُ أنْ يَتُوبَ مِنْ جميعِ الذُّنُوبِ، فَإِنْ تَابَ مِنْ بَعْضِها صَحَّتْ تَوْبَتُهُ عِنْدَ أَهْلِ الحَقِّ مِنْ ذلِكَ الذَّنْبِ وبَقِيَ عَلَيهِ البَاقي. وَقَدْ تَظَاهَرَتْ دَلائِلُ الكتَابِ والسُّنَّةِ وإجْمَاعِ الأُمَّةِ عَلَىٰ وُجوبِ التَّوبةِ:

قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾[النور:٣١].

وَقالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾[هود:٣].

وَقالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[التحريم:٨].

(١٣/ ٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قَالَ: سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**والله إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله وأَتُوبُ إِلَيْه في اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**». رواه البخاري.

(١٤/ ٢) وعن الأَغَرِّ بن يسار المُزَنِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلىٰ الله واسْتَغْفِرُوهُ، فإِنِّي أَتُوبُ فِي اليَومِ إِلَيْه مِائَةَ مَرَّةٍ**». رواه مسلم.

(١٥/ ٢) وعن أبي حمزة أنس بن مالك الأنصاريِّ- خادِمِ رسولِ الله ﷺ- رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَىٰ بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ**». (أي: الفلاة: وهي الصحراء المهلكة) متفق عليه.

وفي رواية لمسلم: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يتوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ** (أي: الراحلة: ما يصلح من الإبل للأسفار والأحمال) **بأرضِ فَلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فأَيِسَ** (أي: يئس) **مِنْهَا، فَأَتَىٰ شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا وَقَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَما هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا** (أي: الحبل الذي تُقاد به) **ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أنت عَبدِي وأنا رَبُّك! أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ**».

(١٦/ ٢) وعن أبي موسىٰ عبد الله بن قيس الأشعريِّ رضي الله عنه: عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ، حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها**». رواه مسلم.

(١٧/ ٢) وعن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها تَابَ اللهُ عَلَيهِ**». رواه مسلم.

(١٨/ ٢) وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمَرَ بن الخطاب رضي الله عنهما: عن النَّبي ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الله عز وجل يَقْبَلُ تَوبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**». (أي: ما لم تبلغ روحه الحلقوم). رواه الترمذي وقال: «حديث حسن».

(١٩/ ٢) وعن زِرِّ بن حُبَيْشٍ قَالَ: أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ رضي الله عنه أَسْأَلُهُ عَن المَسْحِ عَلَىٰ الخُفَّيْنِ، فَقَالَ: ما جاءَ بكَ يَا زِرُّ؟ فقُلْتُ: ابتِغَاء العِلْم. فقالَ: إنَّ المَلائكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يطْلُبُ. فقلتُ: إنَّهُ قَدْ حَكَّ فِي صَدْرِي المَسْحُ عَلَىٰ الخُفَّينِ بَعْدَ الغَائِطِ والبَوْلِ (أي: لم ينشرح صدري لأمر المسح علىٰ الخفين بعد الغائط والبول وشككت فيه)، وكُنْتَ امْرَأً مِنْ أَصْحَابِ النَّبيِّ ﷺ؛ فَجئتُ أَسْأَلُكَ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذكُرُ فِي ذلِكَ شَيئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، كَانَ يَأْمُرُنا إِذَا كُنَّا سَفْرًا- أَوْ مُسَافِرِينَ- ألا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلاثَةَ أَيَّام وَلَيَالِيهِنَّ إِلَّا مِنْ جَنَابَةٍ، لكنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَولٍ ونَوْم. فقُلْتُ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي الهَوَىٰ شَيئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، كُنَّا مَعَ رسولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ، فبَيْنَا نَحْنُ عِندَهُ إِذْ نَادَاه أَعرابيٌّ بصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٍّ (أي: عالٍ): يَا مُحَمَّدُ. فأجابهُ رسولُ الله ﷺ نَحْوًا مِنْ صَوْتِه: «**هَاؤُمْ** (أي: تعالَ)». (أي: وإنما رفع النبي ﷺ صوته شفقة عليه؛ لئلا يحبط عمله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿**لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ**﴾[الحجرات: ٢] فعذره لجهله، ورفع النبي ﷺ صوته حتىٰ كان مثل صوته أو فوقه، لفرط رأفته به). فقُلْتُ لَهُ: وَيْحَكَ (أي: كلمة ترحُّم وتوجع، تُقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها، وقد تقال في المدح والتعجب)! اغْضُضْ مِنْ صَوتِكَ؛ فَإِنَّكَ عِنْدَ النَّبي ﷺ وَقَدْ نُهيتَ عَنْ هذَا! فقالَ: والله لَا أَغْضُضُ. قَالَ الأعرَابيُّ: المَرْءُ يُحبُّ القَوْمَ وَلَمَّا يلْحَقْ بِهِمْ؟ قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يومَ القِيَامَةِ**». فَمَا زَالَ يُحَدِّثُنَا حَتَّىٰ ذَكَرَ بَابًا مِنَ المَغْرِبِ مَسيرَةُ عَرْضِهِ- أَوْ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي عَرْضِهِ- أَرْبَعينَ أَوْ سَبعينَ عامًا. قَالَ سُفْيانُ أَحدُ الرُّواةِ: قِبَلَ الشَّام، خَلَقَهُ الله تَعَالَىٰ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأَرْضَ مَفْتوحًا للتَّوْبَةِ لا يُغْلَقُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ. رواه الترمذي وغيره، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢٠/ ٢) وعن أبي سَعيد سَعْدِ بن مالكِ بن سِنَانٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ نَبيَّ الله ﷺ قَالَ: «**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأرضِ، فَدُلَّ عَلَىٰ رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فقال: إِنَّهُ قَتَلَ تِسعَةً وتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوبَةٍ؟ فقالَ: لا. فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأرضِ، فَدُلَّ عَلَىٰ رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، ومَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَىٰ أَرضِ كَذَا وكَذَا؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا**

يَعْبُدُونَ الله تَعَالَىٰ، فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَىٰ أَرْضِكَ؛ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ. فانْطَلَقَ، حَتَّىٰ إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ (أي: سار نصف الطريق) أَتَاهُ المَوْتُ، فاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ العَذَابِ: فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ. وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ العَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ- أي: حَكَمًا- فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ، فَإِلَىٰ أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَىٰ فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَدْنَىٰ إِلَىٰ الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحمةِ». متفق عليه.

وفي رواية في الصحيح: «فَكَانَ إِلَىٰ القَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَجُعِلَ مِنْ أَهلِهَا».

وفي رواية في الصحيح: «فَأَوحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَإِلَىٰ هذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي. وقَالَ: قِيسُوا مَا بيْنَهُما، فَوَجَدُوهُ إِلَىٰ هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ».

وفي رواية: «فَنَأَىٰ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا».

(٢/٢١) وعن عبد الله بن كعب بن مالكٍ، وكان قائِدَ كعبٍ رضي الله عنه مِنْ بَنِيهِ حِينَ عمِيَ، قَالَ: سَمِعتُ كَعْبَ بنَ مالكٍ رضي الله عنه يُحَدِّثُ بحَديثِهِ حينَ تَخلَّفَ عن رسولِ الله ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكَ. قَالَ كعبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رسولِ الله ﷺ في غَزْوَةٍ غزاها قط إلا في غزوة تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ في غَزْوَةِ بَدْرٍ، ولَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهُ؛ إِنَّمَا خَرَجَ رسولُ الله ﷺ والمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ (أي: العير: الإبل بأحمالها) قُرَيْشٍ، حَتَّىٰ جَمَعَ الله تَعَالَىٰ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَىٰ غَيْرِ ميعادٍ. ولَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رسولِ الله ﷺ لَيلَةَ العَقَبَةِ حينَ تَوَاثَقْنَا عَلَىٰ الإِسْلامِ، وما أُحِبُّ أَنَّ لي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وإِنْ كَانَتْ بدرٌ أَذْكَرَ في النَّاسِ مِنْهَا، وكانَ مِنْ خَبَري حينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رسولِ الله ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لم أَكُنْ قَطُّ أَقْوىٰ ولا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عنْهُ في تِلكَ الغَزْوَةِ، وَالله ما جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّىٰ جَمَعْتُهُمَا في تِلْكَ الغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رسولُ الله ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّىٰ بِغَيرِها (أي: أوهم أنه يريد غيرها) حَتَّىٰ كَانَتْ تلْكَ الغَزْوَةُ، فَغَزَاها رسولُ الله ﷺ في حَرٍّ شَديدٍ، واسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا (أي: صحراء يُخاف فيها الهلاك)، وَاستَقْبَلَ عَدَدًا كَثِيرًا، فَجَلَّىٰ (أي: أوضح) لِلْمُسْلِمينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ (أي: ليستعدوا لما هم مُقبِلون عليه من الغزو)، فَأَخْبرَهُمْ بوَجْهِهِمُ الَّذِي يُرِيدُ (أي: المكان الذي يقصده)، والمُسلِمونَ مَعَ رسولِ الله كثيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ. يريد بذلك

الديوان (أي: وهو دفتر يُكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء). قَالَ كَعْبٌ: فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنَّ ذلِكَ سيخْفَىٰ بِهِ ما لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ الله، وَغَزا رَسُول الله ﷺ تِلْكَ الغَزوَةَ حِينَ طَابَت الثِّمَارُ وَالظِّلالُ، فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ (أي: أميل)، فَتَجَهَّزَ رسولُ الله ﷺ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ وطَفِقْتُ (أي: شَرَعْتُ) أَغْدُو لكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُ، فأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، وأَقُولُ في نفسي: أَنَا قَادِرٌ عَلَىٰ ذلِكَ إِذَا أَرَدْتُ. فَلَمْ يَزَلْ يَتَمادىٰ بي حَتَّىٰ اسْتَمَرَّ بالنَّاسِ الجِدُّ (أي: العمل والاجتهاد) فأَصْبَحَ رسولُ الله ﷺ غَادِيًا والمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيئًا، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَىٰ بي حَتَّىٰ أَسْرَعُوا وتَفَارَطَ (أي: تقدم الغزاة وسبقوا) الغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ، ثُمَّ لم يُقَدَّرْ ذلِكَ لي، فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ في النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ الله ﷺ يَحْزُنُنِي أَنِّي لا أَرَىٰ لي أُسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ في النِّفَاقِ (أي: مطعونًا في دينه متهمًا بالنفاق)، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ الضُّعَفَاءِ. وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ الله ﷺ حَتَّىٰ بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ في القَوْمِ بِتَبُوكَ: «**مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟**». فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يا رَسُولَ الله، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ والنَّظَرُ في عِطْفَيْهِ (أي: كناية عن تكبره وافتخاره بنفسه) فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ ابْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه: بِئْسَ مَا قُلْتَ، والله يا رَسُولَ الله، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا. فَسَكَتَ رَسُولُ الله ﷺ، فَبَيْنَا هُوَ عَلَىٰ ذَلِكَ رَأَىٰ رَجُلًا مُبْيِضًا (أي: يلبس ثيابًا بيضاء) يَزُولُ بِهِ (أي: يتحرك به) السَّرَابُ (أي: السراب: ما يظهر في الصحاري للإنسان في وقت الظهيرة وقت اشتداد الحر كأنه ماء)، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ**». فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ (أي: عاب عليه) المُنَافِقُونَ. قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا (أي: راجعًا) مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي (أي: حزني)، فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الكَذِبَ وأَقُولُ: بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وأَسْتَعِينُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رأْيٍ مِنْ أَهْلِي. فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا (أي: اقترب قدومه)، زَاحَ (أي: زال) عَنِّي البَاطِلُ حَتَّىٰ عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُوَ مِنْهُ بِشَيءٍ أَبَدًا، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ (أي: عزمت علىٰ ألا أكذب عليه). وأَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذلِكَ جَاءهُ المُخَلَّفُونَ (أي: الذين لم يذهبوا معه للقتال) يَعْتَذِرونَ إِلَيْه

ويَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعًا وَثَمانينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ عَلانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلىٰ الله تَعَالَىٰ، حَتَّىٰ جِئْتُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ: «**تَعَالَ**». فَجِئْتُ أَمْشي حَتَّىٰ جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فقالَ لي: «**مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ** (أي: اشتريت الإبل التي تركب عليها)؟». قَالَ: قُلْتُ: يَا رسولَ الله، إِنِّي والله لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ؛ لقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا (أي: فصاحة وبراعة)، ولَكِنِّي والله لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليوم حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَىٰ به عنِّي لَيُوشِكَنَّ الله أن يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وإنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدقٍ تَجِدُ (أي: تغضب) عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عُقْبَىٰ الله ﷻ (أي: أن يخلفه الله خيرًا)، والله ما كَانَ لي مِنْ عُذْرٍ، والله مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَىٰ وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ. قَالَ: فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ**». وَسَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فاتَّبَعُوني فَقالُوا لِي: والله مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هذَا، لَقَدْ عَجَزْتَ في ألا تكونَ اعتَذَرْتَ إِلَىٰ رَسُول الله ﷺ بما اعْتَذَرَ إليهِ المُخَلَّفُونَ، فَقَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُول الله ﷺ لَكَ. قَالَ: فَوالله ما زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّىٰ أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَىٰ رسولِ الله ﷺ فأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هذَا مَعِيَ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ. قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُما؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبيع الْعَمْرِيُّ، وهِلَالُ بنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ. قَالَ: فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا، فيهما أُسْوَةٌ. قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُما لِي، ونَهَىٰ رَسُولُ الله ﷺ عَنْ كَلامِنا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فاجْتَنَبَنَا النَّاسُ- أَوْ قَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا-حَتَّىٰ تَنَكَّرَتْ (أي: تغيرت) لي في نَفْسي الأَرْضُ، فَمَا هِيَ بالأَرْضِ الَّتي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَىٰ ذلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا (أي: خضعا) وقَعَدَا في بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَومِ (أي: أصغرهم سنًّا) وأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ المُسْلِمِينَ، وأَطُوفُ في الأَسْوَاقِ وَلا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رسولَ الله ﷺ فأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ في مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَأَقُولُ في نَفسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْه بردِّ السَّلام أَمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ (أي: أنظر إليه في خفية)، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَىٰ صَلاتِي نَظَرَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي.

حَتَّىٰ إِذَا طَال ذلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ المُسْلِمينَ (أي: إعراضهم) مَشَيْتُ حَتَّىٰ تَسَوَّرْتُ جِدارَ حائِط أبي قَتَادَةَ (أي: علوته وصعدت سوره)، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وأَحَبُّ النَّاس إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيهِ فَوَالله مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بالله هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ ﷺ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَقَالَ: اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ (أي: بكيت)، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّىٰ تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ.

فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ المَدِينة إِذَا نَبَطِيٌّ (أي: النبط: فلاحو العَجَم) مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّام مِمَّنْ قَدِمَ بالطَّعَام يَبِيعُهُ بِالمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَىٰ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ (أي: أخذ) النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ، حَتَّىٰ جاءني فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، وَكُنْتُ كَاتِبًا، فَقَرَأْتُهُ فإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بدَارِ هَوانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بنَا نُوَاسِكَ. فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا: وَهَذِهِ أَيضًا مِنَ البَلاءِ، فَتَيَمَّمْتُ (أي: قصدت) بِهَا التَّنُّورَ (أي: الفرن) فَسَجَرْتُهَا (أي: أحرقتها)، حَتَّىٰ إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنَ الخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ (أي: أبطأ) الْوَحْيُ إِذَا رسولُ رسولِ الله ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رسولَ الله ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ. فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ فَقَالَ: لَا، بَلِ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرَبَنَّهَا. وَأَرْسَلَ إِلَىٰ صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذلِكَ، فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذَا الأَمْرِ. فَجَاءتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رسولَ الله ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكِ**». فَقَالَتْ: إِنَّهُ والله ما بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَىٰ شَيْءٍ، وَوَالله مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَىٰ يَومِهِ هَذَا.

فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَو اسْتَأْذَنْتَ رسولَ الله ﷺ فِي امْرَأَتِكَ؛ فَقَدْ أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟ فَقُلْتُ: لَا أَسْتَأْذِنُ فيها رسولَ الله ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رسولُ الله ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ! فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمُلَ لَنا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلَامِنا، ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَىٰ ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَىٰ الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ الله تَعَالَىٰ مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوفَىٰ عَلَىٰ سَلْعٍ (أي:

صعد جبلًا معروفًا بالمدينة) يَقُولُ بِأَعْلَىٰ صَوتِهِ: يَا كَعْبَ ابْنَ مَالِكٍ، أَبْشِرْ. فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ. فَآذَنَ (أي: أخبر) رسولُ الله ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ الله ﷻ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّىٰ صَلاةَ الفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَىٰ سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي، وَأَوْفَىٰ (أي: صعد) عَلَىٰ الجَبَلِ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ، واللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ (أي: أقصد) رسولَ الله ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونَنِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِي: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ الله عَلَيْكَ. حَتَّىٰ دَخَلْتُ المَسْجِدَ فَإِذَا رسولُ الله ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله رضي الله عنه يُهَرْوِلُ حَتَّىٰ صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي، واللهِ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ. قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَومٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُذْ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**». فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ الله أَمْ مِنْ عِنْدِ الله؟ قَالَ: «**لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ الله** ﷻ». وَكَانَ رسولُ الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّىٰ كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رسولَ الله، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ (أي: أخرج) مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَىٰ الله وَإِلَىٰ رَسُولِهِ. فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**». فقلتُ: إِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ. وَقُلْتُ: يَا رسولَ الله، إِنَّ الله تَعَالَىٰ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ، وإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي ألا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ أَحَدًا مِنَ المُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ الله تَعَالَىٰ فِي صِدْقِ الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرسولِ الله ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي الله تَعَالَىٰ، واللهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذْبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرسولِ الله ﷺ إِلَىٰ يَومِي هَذَا، وإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي الله تَعَالَىٰ فيما بَقِيَ.

قَالَ: فَأَنْزَلَ الله تَعَالَىٰ: ﴿**لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ**﴾ حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿**إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ**﴾ حتى بلغ ﴿**ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾**﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩].

قَالَ كَعْبٌ: والله ما أَنْعَمَ الله عَلَيَّ مِنْ نعمةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَاني اللهُ للإِسْلام أَعْظَمَ في نَفْسِي مِنْ صِدقِي رسولَ الله ﷺ ألا أكونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذينَ كَذَبُوا؛ إنَّ الله تَعَالَىٰ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأحَدٍ، فقال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦].

قَالَ كَعْبٌ: كُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولئكَ الذينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رسولُ الله ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وأرجأَ رسولُ الله ﷺ أَمْرَنَا حَتَّىٰ قَضَىٰ الله تَعَالَىٰ فِيهِ بذلكَ؛ قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨]، لَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ مِمَّا خُلِّفْنَا تَخَلُّفَنَا عن الغَزْوِ، وإنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانا وإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ واعْتَذَرَ إِلَيْهِ فقبِلَ مِنْهُ. متفق عليه.

وفي رواية: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ خَرَجَ في غَزْوَةِ تَبوكَ يومَ الخَميسِ، وكانَ يُحِبُّ أَنْ يخْرُجَ يومَ الخَمِيس.

وفي رواية: وكانَ لَا يَقْدَمُ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا نَهَارًا في الضُّحَىٰ، فإِذَا قَدِمَ بَدَأَ بالمَسْجِدِ فَصَلَّىٰ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ فِيهِ.

(٢/٢٢) وَعَنْ أبي نُجَيد- بضَمِّ النُّونِ وفتح الجيم- عِمْرَانَ بنِ الحُصَيْنِ الخُزَاعِيِّ رضي الله عنهما: أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ رسولَ الله ﷺ وَهِيَ حُبْلَىٰ مِنَ الزِّنَا، فقالتْ: يَا رسولَ الله، أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ. فَدَعَا نَبِيُّ الله ﷺ وَلِيَّها، فقالَ: «**أَحْسِنْ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعَتْ فَأْتِنِي**». فَفَعَلَ، فَأَمَرَ بِهَا نبيُّ الله ﷺ فَشُدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّىٰ عَلَيْهَا. فقالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا رَسُولَ الله وَقَدْ زَنَتْ؟ قَالَ: «**لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِها لله عز وجل؟!**». رواه مسلم.

(٢/٢٣) وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لَوْ أَنَّ لابنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ مَنْ تَابَ**». متفق عليه.

(٢/٢٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ: «**يَضْحَكُ اللهُ - إِلَىٰ رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا**

الآخَرَ يَدْخُلانِ الجَنَّةَ، يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ القَاتِلِ فَيُسْلِمُ فَيُسْتَشْهَدُ». متفق عليه.

❊ ❊ ❊

(التوبة)

اعلم أن الخير والشر مختلطان في خلق الإنسان اختلاطًا شديدًا، بحيث لا يُخلِّصه إلا إحدىٰ النارين: نار الندم في الدنيا، أو نار جهنم في الآخرة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧، ٨].

وقال رسول الله ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ». أحمد في «مسنده» (٣/ ١٩٨) برقم (١٣٠٧٢). ولهذا كان الرجوعُ إلىٰ الخير بعد الوقوع في الشر حاجةً ضرورية للناس جميعًا، والمبادرة إلىٰ نار الندم في الحياة الدنيا أخف الشرين قبل فوات الأوان. والعبد تدور عبوديَّته لله بين ثلاثٍ: الصبر علىٰ المصائب، والشكر علىٰ النعم، والتوبة والإنابة من الذنوب والمعاصي. فالتوبة هي الرجوع من معصية الله إلىٰ طاعته، فمَن أساء في الفعل فعليه الاعتذارُ بواحدةٍ من ثلاثٍ: إما أن يُنكِرَ الفِعلَ ويكذب ويقول: لم أفعل وهي مصيبة. أو أن يُبرِّر فِعلَه ويقول: قد فعلتُ لأجل كذا وكذا. أو يقول: فعلتُ وأسأت، وقد أقلعتُ عن الذنب. وهذا القول الأخير هو معنىٰ التوبة.

والتائب هو الذي يترك الذنب لقُبحه، ويندم علىٰ ما فرَّط فيه، ويعزم علىٰ ترك العودة إلىٰ الذنب، بل يتدارك ما أمكنه أن يتداركه من الأعمال الصالحة بالإعادة لها، والله تعالىٰ يقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٠﴾ [البقرة: ١٦٠]. فالعبد التائبُ إلىٰ الله، يتوب اللهُ عليه، أي يقبل توبتَه ويُوفِّقه للتوبة ويتفضَّل عليه بالمغفرة، وليس في الوجود مِن آدميٍّ إلا وشهوتُه سابقةٌ علىٰ عقله، فغريزته التي هي وسيلة الشيطان سابقة علىٰ عقله. ولهذا فالتوبة فرضُ عينٍ في حقِّ كلِّ مسلم، وهي واجبةٌ شرعًا بجميع شروطها، كالعلم بسوء فعله، وترك هذا الفعل، والندم عليه، والعزم علىٰ عدم العودة إليه مجددًا مرة أخرىٰ أبدًا.

فعلىٰ العبد أن يعرف بذنوبه، ويندم علىٰ فعلها، ويعزم علىٰ تَرْكها.

فحينما يقول الرسول ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهوَ مُؤْمِنٌ**» [متفق عليه]، فهو لا ينفي عنه العِلمَ بوَحْدانية الله وصفاته وكتبه ورسله؛ لأن المعاصيَ غير الشرك والكفر والإلحاد، وإنما أراد به أن العاصيَ غيرُ مؤمن بأن الذنوبَ مُهلِكةٌ للعبد، وأن الزنا مُبعِدٌ عن الله تعالىٰ ومُوجِب لِـمَقْتِه وغضبه، وهذا هو الذي قَصَده الرسولُ ﷺ بقوله: «**وَهُوَ مُؤْمِنٌ**». [كما في الإحياء].

فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان، والإيمان بضع وسبعون شعبة كما ورد عن النبي ﷺ، والمعاصي مُضِرَّة بالإيمان كالمأكولات المضرة بالأبدان، فإذا اجتمعت في البطن أفسدتها وأمرضت صاحبها، وقد تدفعه إلىٰ الموت دفعًا. وكذلك المعاصي، فهي سمومٌ ضارَّةٌ بالدين والدنيا، فيجب علىٰ العبد الابتعادُ عن تناولها حمايةً لحياته وأخراه ما دام في العمر مهلةٌ. وهذا معنىٰ وجوب التوبة علىٰ الفور.

فإن كنت أيها العبد لا تبكي علىٰ معصيتك؛ فذلك لجهلك بمصيبة المعاصي، ومصيبتُك بجهلك أعظمُ من كلِّ مصيبةٍ، فالجهلُ مصيبةٌ كبيرة، ويالأسف لا يعرف من أُصيبَ به أنه صاحبُ مصيبة! وأكثرُ صياحِ أهل النار من التسويف؛ لأن العاصيَ قد فعل المعصيةَ الآن وجَعَل التوبةَ منها مؤجلة إلىٰ حين. والقلب والعمر وسائر أسباب الطاعة أمانة الله تعالىٰ عند العبد، فمن خان الأمانةَ ولم يتدارك الخيانة فأمره إلىٰ خطرٍ عظيم، ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٩]، والقلب المظلم لا يقبله الله تعالىٰ ليتنعَّم بجواره في الجنة. فالثوب يتَّسخ بالأعمال الدنيئة والخسيسة، وكذلك استعمالُ القلب في الشهوات يُقذِّر القلبَ ويُدنِّسه، وتكون نظافته بماء الدموع وحرقة الندم.

شروط التوبة: وللتوبة ثلاثةُ شروط كما قال النوويُّ رحمه الله، وزاد عليها ابنُ عثيمين رحمه الله شرطين فصارت شروطُ التوبة خمسةً:

الشرطُ الأولُ: الإخلاص في التوبة لله، فلا يقصد بذلك الرِّياءَ والتقرب للناس من دون الله،

وإنما يقصد وجهَ الله والدار الآخرة وأن يعفوَ اللهُ عن ذنوبه.

الشرطُ الثاني: الندم علىٰ ما فعل من المعاصي، وهو دليلُ الصدق في التوبة، بحيث لا يرىٰ أنه في حِلٍّ من الذنب حتىٰ يتوب منه إلىٰ الله.

الشرطُ الثالثُ: أن يُقلع عن الذنب الذي هو فيه، ويتركه ويبتعد عنه، وهذا أهمُّ شروطه، فعلىٰ العبد مثلًا أن يترك عقوقَ الوالدين ويقوم ببرِّهما، ويترك قطيعةَ الأهل والأحباب والجيران ويصل الأرحام، ويترك أَكْل الربا والمال الحرام، ويترك الغِشَّ والكذب والخداع وخيانة الأمانة، ويترك الغِيبة والنميمة، والتكلُّم في أعراض الناس.

أما المُصِرُّ علىٰ المعاصي ويقول إنه تائب إلىٰ الله، فهذا مستهزئ بالله عَزَّ وَجَلَّ.

وعلىٰ كلِّ حال فالإنسان لابد أن يُقلع عن الذنب الذي تاب منه، فإن لم يُقلع فتوبته مرفوضة ومردودة عليه. فإن كان الذنب يتعلق بحقٍّ من حقوق الله: كترك الصلاة أو الصيام مثلًا، فيكفي أن تتوبَ بينك وبين الله، وترجع إلىٰ الفقهاء لتعويض ما فاتك.

ولا يجوز أن تُحدِّث الناسَ بما صنعتَ من الحرام أو تركتَ من الواجب؛ لأن اللهَ قد منَّ عليك بالستر عن العباد؛ فلا تُحدِّث أحدًا لئلا يكون هذا من المجاهرة، وقد جاء في الحديث: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًىٰ إِلَّا المُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيهِ، فَيَقُولُ: يَا فُلانُ، عَمِلتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا. وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْه**». متفق عليه.

أما إن كان الذنب بينك وبين الخلق: فلا تُقبَل التوبة إلا بأداء الحقوق، كردِّ المال المسروق أو المُغتصَب، وأما إن كانت غِيبةً لأحدٍ أو سبًّا له بين الناس فالأفضل إن علم بها أن تذهب إليه وتَسْتَحِلَّه منها، وإن لم يكن عَلِم فلا تذهب إليه، بل استغفر له، وتحدَّث بمحاسنه في المجالس التي اغتبتَه فيها؛ فإن الحسناتِ يُذهبن السيئات، وكما رُوِيَ عن ابن المبارك: «**إِذَا اغْتَابَ رَجُلٌ رَجُلًا فَلَا يُخبِرْهُ؛ ولَكِن يَسْتَغْفِرُ اللهَ**». البيهقي في (شعب الإيمان ٩/ ١٢٣).

الشرطُ الرابعُ: وهو العزم علىٰ ألا تعود في المستقبل إلىٰ هذه المعصية وهذا الإثم؛ فإن

التوبةَ لا تصح إن كُنتَ تنوي الرجوعَ إلىٰ المعصية حينما تأتي إليك الفرصة. فلعل عاصيًا يتوب من الإنفاق في الحرام بسببِ فَقرٍ أصابه، وكان في نيَّته أنه إذا عادت الأمور إلىٰ مجاريها الأولىٰ عاد للحرام، فهذا لا توبة له؛ لأنه كاذبٌ، وتُسمَّىٰ توبتُه تلك توبةَ العاجز؛ لأنه ليس بقادر علىٰ فعل المعصية.

الشرطُ الخامسُ: أن تأتي التوبة في زمن تُقبَل فيه، وإلا لم تنفعه توبتُه، فلا بد أن تكونَ التوبة قبل حلول الأجل، فإن الإنسانَ إذا حضرته الوفاةُ وأيس من حياته فات وقتُ التوبة، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**». [أحمد في «مسنده» (٢/ ١٣٢) برقم (٦١٦٠)، حسنه الألباني (صحيح الجامع الصغير) حديث (١٩٠٣)]؛ فهذه توبة المضطر الذي لا حيلة له في طاعة أو معصية. وأن تأتي التوبة قبل أن تطلع الشمس من مغربها.

كما في الحديث: «**مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**». مسلم برقم (٤٨٧٢).

والذنب يَعظُم بقدر عِلْمِ ومعرفة صاحبه، فتَعظُم المعصية إذا صدرت من العالم، بما لا يكون من الجاهل؛ ولهذا يُزاد في عذاب العالم الفاجر علىٰ عذاب الجاهل الفاجر. وما ارتكب المرءُ ضد أخيه ذنبًا أعظمَ من أن يُساعده علىٰ معصية ثم يُهوِّنها عليه. وطوبىٰ لمن إذا مات ماتت ذنوبُه معه.

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: ويلٌ للعالم من الأتباع؛ يزلُّ زَلَّةً ثم يرجع عنها، ويحملها الناس، فيذهبون بها في الآفاق. وقال بعضهم: مَثَل زَلَّة العالم مثل انكسار السفينة، تغرق ويغرق أهلها. فعلىٰ العلماء تَرْك الذنوب أو إخفاؤها، فكما تتضاعف أوزارهم علىٰ الذنوب تتضاعف حسناتهم علىٰ الأعمال الصالحة إذا اتُّبعوا. واعلم أن حقوقَ الله أعظمُ من أن يقوم بها العباد، وأن نِعَم الله أكثرُ من أن تُحصىٰ، ولكن إذا أصبح العبدُ تائبًا وأمسىٰ تائبًا فقد نجا، فيبدأ يومه بالتوبة عما كان بالليل، ويختمه بتوبة عما كان بالنهار. فالتوبة تُكمل النقص في الأعمال وتُطهِّر العبد من الذنوب.

وفي هذا قال ابن عمر رضي الله عنهما: مَن ذكر خطيئةً ألَمَّ بها (أي: وقع فيها) فوَجِل منها قلبُه مُحِيَتْ عنه في أمِّ الكتاب. وقال: إن العبد قد يُذنِب الذنبَ فلا يزال نادمًا آسفًا عليه طيلةَ حياته حتىٰ يَدخُلَ الجنة، ويقول إبليس: ليتني لم أُوقعه في الذنب.

وقال ابن عطاء الله السكندري: رُبَّ معصيةٍ أورثت صاحبَها ذلًّا وانكسارًا (أي: كلما تذكَّرها) أدخله الجنة.

وإذا تأملنا توبةَ الكافر في قوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]؛ نرجو أن يكونَ المسلمُ عند الله أحسنَ حالًا، ولعل اللهَ يقبل توبته كإسلام بعد إسلام، كما يقبل توبة الكافر عند إسلامه. وقال بعضُ الصالحين: أنا أعلم متىٰ يغفر الله لي. قيل له: ومتىٰ؟ قال: إذا تاب عليَّ. يقصد: إذا وفَّقني للتوبة.

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اجلسوا إلىٰ التوابين؛ فإنهم أرقُّ أفئدةً.

التوبةُ النَّصُوحُ: التوبة النصوح هي إعمالُ القلوب قبل الجوارح، وتُعنَىٰ بتنزيهِ القلب عن الذنوب، وعلامتُها أن يَكْره العبدُ المعصيةَ ويستقبحها، فلا تخطر له علىٰ بالٍ ولا تَرِدُ في خاطرٍ أصلًا، وتأكيد العزم علىٰ ألا يعود للمعصية لا سرًّا ولا جهرًا. وهذه التوبة هي التي تُورث صاحبَها الفلاحَ عاجلًا وآجلًا. ولا يُمكن للعبد تَرْكُ الذنب إلا إذا عرف أنه ذنبٌ وإثم، فمعرفة الذنوب إِذَنْ واجبةٌ شرعًا. والإنسان لا يخلو من معصية: إما بالجوارح، وإما بالقلب؛ ولهذا أُمرنا بالتوبة المستمرة، فإنه لا يسلم أحدٌ من النقص.

والذنبُ هو ما خالف أَمْر الشرع الحكيم في أداء فعلٍ أو تركه.

الصفاتُ المُثيرةُ للذنوبِ في الإنسانِ: وهي أربعٌ:

الصفاتُ البهيميَّةُ في الإنسانِ: فمنها يتشعَّب الشَّرَهُ والحرص علىٰ قضاء شهوة البطن والفرج، والزنا، واللواطة، والسرقة، وأَكْل مال اليتيم، وجَمْع حُطام الدنيا بأيَّة وسيلةٍ. وهذا ظاهرٌ في صفات البهائم.

الصفاتُ السَّبُعيَّةُ: حيث تظهر في الإنسان صفاتُ السِّباعِ الحيوانية، كالذئاب والثعالب والكلاب وسائر أنواع السباع، فيتشعَّب منها الغضب، والحقد، والتهجم علىٰ الناس بالضرب والشتم والقتل ونهب الأموال وغَصْبها.

الصفاتُ الشيطانيَّةُ: فإذا اجتمعت في الإنسان الصفات البهيمية والسبعية فاستخدم بعد ذلك عقله وحيلته في فعل السيئات يخرج منه الحسد والبغي والحيلة والخداع والمكر والغش والنفاق والأمر بالفساد والإفساد، وغير ذلك من سمات الشياطين.

الصفاتُ الاستعلائيَّةُ أو الرُّبُوبيَّةُ: أي: التشبه بالأرباب، حيث يأتي منها الكِبر والفخر والعُجْب وحبُّ المدح والثناء، وطلب الغنىٰ وطلب الاستعلاء عمومًا علىٰ الخلق، كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلىٰ. ويتشعَّب من هذه الصفة كبائر الذنوب؛ وقد قال تعالىٰ في وَصْف من لا يستكبرون: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]، فهذه أُمَّهات الذنوب.

الكبائرُ: والكبائر هي الذنوب العظام التي يترتَّب علىٰ إتيانها إقامةُ عقوبة الحدِّ علىٰ صاحبها، وقد توعَّد الشرع عليها بعذاب النار واللعن والطرد من رحمة الله تعالىٰ، أما من اجتنب الكبائر فقد قال اللهُ تعالىٰ فيه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

والكبائر كثيرة، وقد حصرها **أبو طالب المكي** رحمه الله فقال: الكبائر سبع عشرة، وهي:

أربعٌ في القلب: وهي الشرك بالله تعالىٰ، والإصرار علىٰ المعصية، والقنوط من الرحمة، والأَمْن مِن مَكْر الله.

وأربعٌ في اللسان: وهي شهادة الزُّور، وقَذْف المُحصَن، واليمين الغَمُوس (أي: وهي التي يترتب عليها بطلان حق أو إحقاق باطل في المال أو العِرْض)، وسُمِّيت غموسًا لأنها تغمس صاحبها في النار. ثم السِّحر.

وثلاثٌ في البطن: وهي شُرب الخمر والمُسكِر من كلِّ شرابٍ، وأَكْل مال اليتيم ظلمًا، وأَكْل الربا مع العلم به.

واثنتان في الفرج: وهما: الزنا، واللواطة.

واثنتان في اليدين: وهما: القتل، والسرقة.

وواحدةٌ في الرجلين: وهي الفرار من الزحف.

وواحدةٌ في جميع الجسد: وهي عقوق الوالدين. والعقوق أن يُقسم الأبوان علىٰ ابنهما في حقٍّ فلا يَبَرُّ قَسَمَهما، وإن سألاه حاجةً فلا يُطيعهما، وإن سبَّاه لسبب أو لآخر يضربهما، وقد يجوعان فلا يُطعمهما.

وعددُ الكبائر لا يمكن حصره، ولعلَّ الشرع قصد ذلك ليكون العبادُ علىٰ وَجَلٍ وخوف. **ويُقسِّم بعضُ أهلِ العلم الكبائرَ إلىٰ ثلاث مراتب:**

فالمرتبة الأولىٰ: هي كلُّ معصية أو ذنب يمنع أو يصد عن معرفة الله تعالىٰ وعبوديته، فهذه مرتبةُ أكبر الكبائر التي تُوصل صاحبها للكفر والجحود.

والمرتبة الثانية: هي كلُّ معصية أو ذنب يمنع ويسدُّ باب المحافظة علىٰ النفوس، كالقتل وغيره.

والمرتبة الثالثة: هي كلُّ معصية أو ذنب يمنع الكسب والمعايش التي بها حياة الناس، كالسرقة والغش والخداع. فكان حِفظُ المعرفة بالله أولًا، والحفاظُ علىٰ حياة الناس ثانيًا، والحفاظ علىٰ أموال الناس ثالثًا، كلها أمور ضرورية في مقصود الشريعة.

أقسامُ الناسِ في الآخرةِ: يقول **الإمام الغَزَاليُّ في «الإحياء»**: إن الناسَ في الآخرة علىٰ أربعةِ أقسام: هالكين، ومُعذَّبين، وناجين، وفائزين.

فأما **الهالكون**: فهم الجاحدون والمُعرِضون والمُكذِّبون اللهَ ورسلَه، وهم الكُفَّار والمشركون والملحدون.

وأما **المُعذَّبون**: فأولئك عندهم أصلُ الإيمان والتوحيد ولكن قصَّروا في أداء الأعمال، فمنهم من هو ظالمٌ لنفسه أو ظالمٌ للعباد.

وأما **الناجون**: فهم الذين سَلِمُوا من العذاب، ولكن مِن دون مرتبةِ الفوز والسعادة الحقيقية، إنما كان فوزُهم في النجاة فقط من العذاب، فلعل هذا حالُ مَن مات من المجانين وصبيان الكفار والمعتوهين، والذين لم تبلغهم دعوةُ الله في أقاصي البلاد؛ حيث لا معرفة لهم ولا جحود بشرع ولا طاعة ولا معصية، فلا وسيلة تُقرِّبهم إلىٰ الله، ولا جناية تُبعدهم عنه، فهم ليسوا من أهل الصلاح ولا من أهل الفساد، وهم أصحاب الأعراف. والله أعلم.

وأما **الفائزون**: فهم المُقرَّبون والسابقون والعلماء العارفون، وفي حقِّهم قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة ١٧].

وينبغي أن يُعالج المرض بدواءٍ مضادٍّ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، فينبغي أن تُمحىٰ كلُّ سيئةٍ بحسنةٍ من جنسها، فالبياضُ يُداوَىٰ بالسواد لا بالحرارة والبرودة؛ إذ لا مسلم إلا وهو جامعٌ بين طاعةِ الله ومعصيته.

وإذا أُتبِع الذنب بثمانية أعمال كان العفوُ مَرْجُوًّا:

أربعةٌ من أعمال القلوب: وهي العزم علىٰ التوبة، والإقلاع عن الذنب، وخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له.

وأربعةٌ من أعمال الجوارح: كأن يُصلِّي التائبُ عقيب ذنبه ركعتين، ثم يستغفر الله تعالىٰ بعدهما سبعين مرة، ويقول: **«سبحان الله العظيم وبحمده»** مائةَ مرة، ثم يتصدَّق بصدقة، ثم يصوم. وقال رسول الله ﷺ: **«اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»**. أحمد في «مسنده» (٥/ ١٥٣) برقم (٢١٣٩٢)، حسنه الألباني (صحيح الجامع الصغير) حديث (٩٧). ولهذا قيل: صدقةُ السِّرِّ تُكفِّر ذنوبَ الليل، وصدقة الجهر تُكفِّر ذنوبَ النهار. وللتوبة ثمرتان: إحداهما تكفيرُ السيئات حتىٰ يصيرَ التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والثانية نَيْلُ الدرجات حتىٰ يصير حبيبًا لرب العالمين.

وسُئل أحد الصالحين: إن لساني في بعض الأحوال يجري بالذكر والقرآن، ولكن قلبي غافل؟ فقال: اشكر الله؛ إذ استعمل جارحةً من جوارحك في الخير وعوَّدها علىٰ الذكر والقرآن، ولم يستعملها في الشر ولم يُعوِّدها فُضُولَ وسيئ الكلام.

وإياك أن تنظر فقط في الطاعات إلىٰ مجرد العيوب والآفات، كالرياء والغفلة مما يُفتر ويُضعف رغبتك في العبادات. وقد قالت رابعةُ العَدَوِيَّةُ رحمها الله: استغفارُنا يحتاج إلىٰ استغفارٍ كبير. فهي لا تَذُمُّ حركةَ اللسان من حيث ذِكْرُ الله، بل تَذُمُّ غَفْلَةَ القلب الذي يحتاج إلىٰ استغفارين: واحدٍ للقلب، وآخَرَ لِلِّسَان، فلا تَحْقِرْ ذَرَّاتِ الطاعات والمعاصي. فهذا جعفرٌ الصادق رَحِمَهُ اللهُ يقول: إن اللهَ خبَّأَ ثلاثةَ أشياءَ في ثلاثة أشياء: خبَّأَ رضاه في طاعته؛ فلا تحقرن من الطاعة شيئًا فلعل رضاءه فيه، وخبَّأَ سخطه في معصيته؛ فلا تحقرن من المعصية شيئًا فلعل سخطه فيه، وخبَّأَ أولياءه في خلقه، فلا تحقرن أحدًا فلعله ذلك الوليُّ.

ودواء التوبة خليط من حلاوة العلم ومرارة الصبر، ولكلِّ داء دواء. وينبغي علىٰ أهل العلم أن يقوموا بدعوة الناس وتعليمهم؛ لأنهم ورثةُ الأنبياء، فالأنبياء ما تركوا الناسَ علىٰ

جهلهم، بل كانوا يدعونهم في مجامعهم وأنديتهم ويدورون علىٰ أبوابهم وبيوتهم ويرشدونهم؛ ذلك أن مرضىٰ القلوب لا يعرفون مرضهم، ومن لا ينظر في المرآة لا يرىٰ ما بوجهه. فعليك أن تجتهد في إرضاء خالقك فوق ما تجتهد في إرضاء نفسك، واعلم أن الدنيا عدوٌّ لأولياء الله ولأعداء الله أيضًا؛ فأما أولياؤه فغمتهم بالابتلاءات، وأما أعداؤه فغرَّتهم بالمعاصي.

فالتوبة إِذَنْ هي تَرْك الذنب لقبحه، والندم علىٰ ما سبق منه، والعزيمة علىٰ ترك المعاودة إليه مجددًا، وتدارك ما أمكنه أن يتداركه من الأعمال بالإعادة والتكرار.

التوبةُ والإنابةُ والإيابةُ: يُقال لمن خاف العقاب وكفَّ عن المعصية: هو صاحب توبة. كما قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١]. ويُقال لمن يتوب ويطمع في ثواب ربه إنه صاحبُ إنابة. كما وصفهم اللهُ تعالىٰ في كتابه الكريم بقوله: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٣]؛ لأن **الإنابةَ** ليست فقط الكفَّ عن المعاصي، بل هي أيضًا الرجوعُ من الغفلة إلىٰ الذكر، ومن الوَحْشة والابتعاد إلىٰ الأُنْس والقُرْب. وأما **الإيابة** فهي الأعلىٰ منهما، فهي صفة الأنبياء والمرسلين؛ قال الله تعالىٰ: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠]؛ فالأنبياء ليسوا بأهل معاصٍ، فهم معصومون، بل هم أهل الطاعة والتوجه إلىٰ الذكر والأنس بالله.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**». أحمد في مسنده (١/ ٣٧٦) برقم (٣٥٦٨)، صححه الألباني (صحيح الجامع الصغير) حديث (٦٨٠٢). ورُوي أن امرأةً سَرقت في غزوة الفتح، فأُتي بها رسولُ الله ﷺ، فأمر بها فقُطعت يدها. قالت عائشة رضي الله عنها: فحَسُنَت توبتها، وتزوَّجت، وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلىٰ رسول الله ﷺ. متفق عليه.

قال محمد بن كعب القُرَظي رحمه الله: التوبة يجمعها أربعةُ أشياء: الاستغفارُ باللسان، والإقلاعُ بالأبدان، وإضمارُ تَرْك العَوْد بالجنان (أي: القلب)، ومُهاجَرة سيِّئ الإخوان.

وقال يحيىٰ بن معاذ رحمه الله: الذي حَجَب الناسَ عن التوبة: طولُ الأمل. وعلامة التائب: إسبالُ الدمعة، وحبُّ الخَلْوَةِ، والمحاسبة للنفس عند كلِّ هَمَّة (أي: إذا همَّ بفعل ما).

وقال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: إن التوبةَ هي حقيقةُ الإسلام؛ لأن الدِّينَ كلَّه داخلٌ في مسمَّىٰ التوبة، وبهذا استحقَّ التائبُ أن يكونَ حبيبَ الله، فإن الله يُحب التوابين ويحب المتطهرين.

فإذن تتحقَّقُ التوبة باجتناب ما يُغضِب اللهَ، ظاهرًا وباطنًا، وإتيان ما يحبه، ظاهرًا وباطنًا؛ ولهذا كانت التوبةُ غايةَ كل مؤمن، فهي بداية الأمر وخاتمته، وهي الغاية التي وُجد لأجلها الخلق، بل إن التوحيدَ هو جزءٌ منها.

وأكثرُ الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها، فضلًا عن القيام بها علمًا وعملًا، ولم يجعل اللهُ تعالىٰ محبَّته للتوابين إلا لأنهم خواصُّ الخلق لديه، ولولا أن التوبةَ اسمٌ جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الربُّ تعالىٰ يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم.

ومن فضائل التوبة أن الله يتجلىٰ برضوانه وإحسانه علىٰ التائب ويُقبل إليه أضعاف إقباله علىٰ العبد المطيع؛ لسعة رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحبِّه لتوبة العباد، وتيسير التوبة عليهم.

❊ ❊ ❊